الإبداع الصوتي والدلالي
في ترداد الجمل في السياق القرآني

د٠أحمد عبد الله أحمد نصير(*)

توطئـــة:

من الظواهر اللغوية التي لفتت نظر علماء العربية القدماء التكرار اللفظـــي، ورأوا أنه–بما له من أبعاد دلالية– يمثل قيمة كبرى في الكلام، فأولوه اهتمامـــا كبيرا في مؤلفاتهم، حيث عَرَضوا صوره وأسبابه وأغراضه المتعـــددة، ومما يرتبط بـــ التكرار اللفظي: الترداد، فَلَه في السياق القرآني طابعٌ مُمَيَّـــز يمثـــل ظاهرة قرآنية، جَذَبَت انتباهَ الأدباء والبلاغيين وعلماء التفســـير والدراســـات القرآنية(١) .

فما المقصود بالترداد؟ وما علاقته بالتكرار؟ وما أثره في النص القرآني؟ وهل كان ترداد الجُمَل ثقيلًا على اللسان والسمع فأدخل الاضطراب على أسلوب القرآن؟ وهل جاء في النص القرآني بلا فائدة، فَـــغَـــدا حشوًا مخلًّا بالنظم كما ادعى بعض الباحثين؟ هذا هو موضوع بحثنا المُكَوَّن من مقدمة ومبحثين، تدور المقدمة حَوْلَ بيان مفهوم الترداد، والفرق بينه وبين التكرار اللفظي، ويدور المبحث الأول حَوْلَ أَثَر ترداد الجُمَل من الناحية الدلالية، ويدور المبحث الثاني حَوْلَ أَثَر ترداد الجُمَل من الناحية الصوتية، وقد سرت في بحثي وفقا للمنهج الوصفي التحليلي مُوجِّهًا أضواء الدرس الصوتي الحديث على المبحث الثاني من الدراسة للاستفادة من معطيات الدراسة الصوتية الحديثة في بيان أسرار القران من ناحية التكرار اللفظي، وإليك التفصيل:

(*) أستاذ علم اللغة المساعد بكلية الآداب – جامعة قناة السويس.

(١) كالجاحظ (ت٢٥٥هـــ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤١٧هـــ)، والسيوطي (ت٩١١هـــ) وغيرهم.

المقدمة

مفهوم الترداد والفرق بينه وبين التكرار اللفظي

كانت ظاهرة التكرار القرآني موضع نظر كثير من علماء العربية القدماء، فمنهم من تناول التكرار أثناء تفسيره القرآن، كـالطبري ت٣١٠هـ وفخر الدين الرازي تـ٥٤٤هـ، ومنهم من خصه بباب أو فصل أو مبحث، كابن قتيبة ت ٢٥٦هـ في كتابه (تأويل مشكل القرآن) والخطابي ت٣٨٨هـ في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والزركشي تـ٧٤٥هـ في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، والسيوطي ت ٩١١هـ في كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، ومنهم من أفرد له كتابا مستقلا كالكرماني ت٥٠٠هـ في مؤلفه (أسرار التكرار في القرآن)، وكان لكل منهم – إزاء حكمة التكرار القرآني– رأيه الذي استراحت له نفسه واطمأن إليه قلبه(١).

أما عن الفرق بين التكرار والترداد، فالتَّكرار– بفتح التاء– في اللغة: مصدر كَرَّرَ، إذا رَدَّدَ وأعاد، والتكرار والتكرير بمعنى واحد، يقال: كَرَّرَ الشيءَ تكريرًا وتَكْرارًا: أعاده مرة بعد أخرى(٢)، والتكرار اصطلاحا: دلالة اللفظ على المعنى مرددا (٣) ، أي: تكرار الكلمة أو الجملة أكثر من مرة في سياق واحد، رغبة في التوكيد أو التهويل أو التعظيم أو التلذذ بذكر المكرر أو ....".

---

(١) راجع ما قاله الأئمة من علماء السلف عن ظاهرة التكرار القرآني في كتب التفاسير المختلفة وفى بعض الكتب الأخرى مثل: أسرار التكرار في القرآن للكرماني، والبرهان في علوم القرآن للزركشى ٩/٣ وما بعدها ، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ١/ ٣٤١.

(٢) لسان العرب مادة (كرر) .

(٣) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير٢/ ١٤٦ .

والترداد في اللغة: الرَّجْع، جاء في اللسان: « الردّ: صَرْفُ الشيءِ ورجْعُه، والردّ مصدر: رددت الشيء، وردّهُ عن وجهه يردّه ردًّا ومردًّا وترادادًا: صرفه، وهو بناءٌ للتكثير، وردّدهُ ترديدًا وترادادًا فتردّد[1]»، والترداد في الاصطلاح: الإتيان بلفظ متعلق بمعنى، ثم إعادة اللفظ مع معنى آخر في نفس الكلام، وترداد الجمل في أسلوب القرآن: ذكر جملة متعلّقة بمعنًى ما، ثم إعادة ذكرها بعينها وترديدها مع تعلّقها بمعنى آخَر؛ لتحقيق غرض معين.

هل هناك علاقة بين التكرار والترداد في النص القرآني؟ وهل أسلوب الترداد يعيب القرآن؟

ترداد الألفاظ أو الجمل في القرآن وسيلة بيانية انبثقت عن التكرار الهادف إلى التأكيد، فعندما تَعَدَّدَ المُكَرَّرُ وزاد تكرره عن ثلاث مرات وتَعَدَّدَ متعلقة، خرج بذلك عن باب التكرار إلى باب آخر سماه السيوطي: الترديد، وسماه الجاحظ: الترداد، يقول السيوطي: « التكرير أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة ..... ومنه ما كان لتعدد المتعلّق بأن يكون المكرّر ثانيًا متعلّقًا بغير ما تعلّق به الأول، وهذا القسم يسمّى بالترديد، ... ومنه قوله: فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان، فإنها وإن تكرّرت نيفًا وثلاثين مرة، فكل واحدة تتعلّق بما قبلها، ولذلك زادت على ثلاثين، ولو كان الجميع عائدًا إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة؛ لأن التأكيد لا يزيد عليها[2]»، ويسوق الجاحظ لفظ الترداد أثناء حديثه عن طائفة من البلغاء والخطباء قائلا: « وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حدّ ينتهى إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص[3]».

---

(١) لسان العرب مادة (ردد).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج٢، ص٣٩١،٣٩٢.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج١، ص١٠٥.

من هنا أقول: هناك علاقة بين التكرار والترداد، إذ يلتقيان في الغاية ويفترقان في الوسيلة، يلتقيان في الغاية؛ لاتفاقهما في إفادة التأكيد، ويختلفان في الوسيلة؛ لأن التأكيد بواسطة التكرار يتم بتكرير اللفظ والمعنى معًا، أما التأكيد بواسطة الترداد فيكون بتكرير اللفظ فقط، أما المعني فيكون بحسب ما يتعلق به عند كل ترداد.

أما من حيث الحكم على أسلوب الترداد القرآني، فقد ادَّعَى بعض الباحثين أن أسلوب ترداد الجمل كان حشوا بلا فائدة فأدخل الاضطراب على النص القرآني، وجعله ثقيلا على اللسان والسمع معا[1]، ولمناقشة هذه الدعوى أتناول ظاهرة ترداد الجُمَل في السياق القرآني وأدرسها من الناحيتين الدلالية والصوتية، مستعينا بالدرس اللغوي القديم بما له من نظرات عميقة، وبالدرس اللغوي الحديث بما له من أدوات تطبيقية ومناهج على قدر كبير من الدقة العلمية، وتتم الدراسة من خلال المبحثين التاليين:

(١) انظر المزاعم التي رددها الطاعنون – قديما – على القرآن من جهة التكرار اللفظي كما أوردها ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن، وانظر الشبهات التي أثارها المستشرقون – حديثا – حول القرآن تحت مادة قرآن في الجزء الخامس عشر من الموسوعة البريطانية British Encyclopedia.، وانظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عباس، وانظر: الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه للأستاذ محمد الدسوقي.

المبحث الأول

ترداد الجمل في السياق القرآني من الناحية الدلالية

مواضع ترداد الجمل في القرآن :

ترددت في القرآن الكريم بعض الجمل بإعادة ذكرها في السياق القرآني أكثر من مرة، وظن بعض الناس أن هذا الترديد تكرار، والحقيقة غير ذلك، فهناك مواضع في القرآن فيها تكرار لفظي مقصود، له أهداف وأغراض تحدَّث عنها العلماء القدامى والباحثون المحدثون، وهناك مواضع تبدو في ظاهرها أنها تكرار لكنها ليست تكرارا بل ترددٌ، ولعل من أبرز صور ترداد الجمل في القرآن الكريم ما تردد في سور: الشعراء والنمل القمر والرحمن والمرسلات، فسورة الشعراء تَرَدَّدَ فيها قولُه تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»٨ مرات[١]، وقوله تعـــــالى: « أَلَا تَتَّقُون إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»٥ مرات، وقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون»٨ مرات[٢]وسورة النمل تَرَدَّدَ فيها قولُه تعالى:« أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ» ٥ مرات[٣]، وسورة القمر تَرَدَّدَ فيها قولُه تعالى:« فَهَل مِنْ مُدَّكِر»٦مرات، وقولُه تعالى:« فَكَيْفَ

---

(١) في سورة الشعراء تَرَدَّدَ قولُه تعالى:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم" ثمان مرات في الآيات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١).

(٢) تَرَدَّدَ قولُه تعالى:أَلَا تتقون إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ خمس مرات، في الآيات:١٠٧-١٠٨،١٢٥-١٢٦،١٤٣-١٤٤،١٦٢-١٦٣، ١٧٨-١٧٩، وتردد قوله :"فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون "ثمان مرات، خمس منها مقرونة بالجمل السابقة هكذا: أَلَا تتقون إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون، وثلاث مرات دون الاقتران بها، في الآيات: ١١٠،١٣١، ١٥٠.

(٣) في سورة النمل تَرَدَّدَ قولُه تعالى: "أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ" ٥ مرات في الآيات:٦٠،٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤).

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ»٤ مرات[١]، وسورة الرحمن تَرَدَّدَ فيها قولُه تعالى: « فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»٣١مرة[٢]، وسورة المرسلات تَرَدَّدَ فيها قولُه تعالى:« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ»١٠ مرات[٣].

موقف القدماء من ترداد الجمل في القرآن : الترداد أو التكرار كلاهما – في نظر القدماء– ليس عيبا في الكلام إذا كان لفائدة، يقول الجاحظ: « إنه ما سمع بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ، وترداد المعاني عيًّا[٤]»، وترداد الجمل ليس أسلوبا مبتدعا في القرآن، فالقرآن نزل بلغة العرب وعلى سننهم وطرائقهم في الكلام، وقد جاءت ظاهرة ترداد الجمل كثيرا في كلام العرب؛ فالمهلهل بن ربيعة حين رثى أخاه كليبًا[٥] ردّد: « عَلَى أَنْ لَيْسَ عِدْلًا مِنْ كُلَيب» في أكثر من عشرين بيتًا من قصيدته، والحارث بن عباد ردّد: « قرّبَا مِنِّى مربطَ النَّعَامَة» في قصيدته أكثر من سابقه؛ لأنَّ كُلًّا منهما رأى الضرورة داعية إلى الترداد والتكرار؛ بسبب عِظَم الخَطْب وشدة المصيبة، بل إن الترداد والتكرار في القرآن الكريم – من وجهة نظر الدرس اللغوي القديم–

(١) تَرَدَّدَ قولُه تعالى: (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) ست مرات، في الآيات: ١٥، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢، ٤٠ ، ٥١، وكانت مذكورة عقب قوله تعالى: ولقد يسرنا القرآن للذكر أربع مرات، ومنفردة مرتين، وتَرَدَّدَ قولُه: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) أربع مرات في الآيات: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠.

(٢) في سورة الرحمن تَرَدَّدَ قولُه تعالى: "فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" ٣١ مرة في الآيات: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧).

(٣) في سورة المرسلات تَرَدَّدَ قولُه تعالى: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ" عشر مرات، في الآيات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج١،ص١٠٥.

(٥) هذا المثال ساقه الشريف المرتضى فى أماليه. انظر: أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ١٢٣/١.

يُعَدُّ لونا من ألوان الفصاحة ووجها من وجوه الإعجاز، يقول الإمام فخر الدّين الرازي: « اعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنه من الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية له وراءها، فدل ذلك على كونه معجزا، منها أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلا[1]»، ويقول الإمام الزركشي: « وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة فيه، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدّعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وعلى ذلك تحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد؛ لأن الإنسان مجبول على الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع[2]».

دلالة الترداد في سور:الشعراء والنمل القمر والرحمن والمرسلات:

أ- **<u>الترداد في سورة الشعراء:</u>**

في سورة الشعراء تَرَدَّدَ قولُه تعالى: « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم» ٨ مرات في الآيات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١)، وتَرَدَّدَ قولُه تعالى: « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون»

(١) التفسير الكبير لفخر الدّين الرازي صـــ ١١٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ط١ ، ١٤٠٨هـــ-١٩٨٨مج٣ ، ص١٢.

٨ مرات، في خمس مرات منها كانت مقرونة بجمل أخرى في السياق هكذا: « أَلَا تَتَّقُون إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون» في الآيات:١٠٧-١٠٨، ١٢٥- ١٢٦، ١٤٣-١٤٤، ١٦٢-١٦٣، ١٧٨-١٧٩، وترددت منفردة وسط بعض السياقات ثلاث مرات في الآيات: ١١٠، ١٣١، ١٥٠.

وبتأمل تلك الجمل المرددة نلاحظ أنه تَمَّ ذِكْر جُمَل: « إنَّ فِي ذَلكَ لَآيةً - ومَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم» على التوالي في ثمانية سياقات، في المرة الأولى ذُكِرَت عَقِب بيان قدرة الله على خلق جميع الكائنات وإنباتهم في الأرض، وفي المرات السبع الأُخَر تَمَّ ترددها عقب بيان قدرة الله على الانتقام من سبعة أقوام من العصاة، هم أقوام: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وتَمَّ ذِكْر جُمَل: « أَلَا تَتَّقُون - إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ - فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون » وترددها على التوالي عدة مرات أثناء عَرض لمحات من قصص خمسة أقوام هم أقوام: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ولترداد هذه الجمل دلالةٌ عظمى تتمثل في ثلاثة أشياء:

١- في الحث عَلَى الاتعاظ بآيات الله العزيز المنتقم من عصاة الأمم السابقة.

٢- في بيان رحمة الرب اللطيف بعباده والترغيب في عدم اليأس من رحمته.

٣- في توطيد معنى التقوى وتوكيده [١].

(١) يقول جرونيباوم: على الرغم من أنه ظنّ خطأ ببلاغة القرآن الذي وقع فيه التكرار "ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا، ولا ابتغاء التهذيب الخلقي لنفوسنا، تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب، فإن كثيرا من آيات الكتاب لم يكن قصد النبي صلى الله عليه وسلم من نقله إلى الناس هو الاستثارة الذهنية، بل توطيد معايير جديدة للتقوى والصلاح.حضارة الإسلام صـــ١٠٩.

بـــ- الترداد في سورتي النمل والرحمن:

- **الترداد في سورة النمل:**

في سورة النمل تَرَدَّدَ قوله تعالى: (أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ) خمس مرات في الآيات: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، وفي سورة الرحمن تَرَدَّدَ قولُه تعالى: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إحدى وثلاثين مرة؛ وكان الترداد في السورتين هادفا إلى الإقرار بنِعَم الله والحث على شُكْر المُنْعِم؛ لأن ترداد قوله تعالى: (أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ) في سورة النمل، جاء في مواضعه الخمسة تعقيبًا على نِـــعَـــمٍ عظمى مقدَّمة من الإله المُنْعِم، ومثل هذا الترداد من شأنه التذكير بمدى قدرة المُنْعِم والحث على شكره وإفراده بالإلوهية؛ ففي الموضع الأول جاء قولُه تعالى: (أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ) بَعْدَ ذِكْرِ نِعَم خَلْق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء واستخدامه في إنبات الحدائق المبهجة، ثم تَرَدَّدَ في الموضع الثاني بَعْدَ ذِكْرِ نِعَم جَعْل الأرض قرارا وجَعْل الأنهار خلالها وجَعْل الجبال رواسي لها، ثم تَرَدَّدَ في الموضع الثالث بَعْدَ ذِكْرِ نِعَم إجابة دعاء المضطر، وكشف السوء وجَعْل الناس خلفاء الأرض، ثم تَرَدَّدَ في الموضع الرابع بَعْدَ ذِكْرِ نِعَم هداية الله الناسَ في ظلمات البر والبحر وإرسال الرياح بشرا بين يدي رحمته، ثم تَرَدَّدَ في الموضع الخامس بَعْدَ ذِكْرِ نِعَم بَدْأ الخلق وإعادته، والرزق من السماء، كل هذا واضحٌ في السياق القرآني التالي: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ

ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
[النمل: ٦٤]

- **الترداد في سورة الرحمن:**

وكذلك ترداد (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في سورة الرحمن، فقد جاء في واحد وثلاثين موضعا تعقيبًا على نِـعَـمٍ إلهية مُقَدَّمة إلى الخَلْق، ومثل هذا الترداد من شأنه التذكيرُ بالنعم والحث على شكرها والإقرار بها؛ لأن التكرار يؤكد ما تحمله العبارة المكررة ويقويه، فالله تعالى عدَّد في سورة الرحمن نِعَمَه، وذَكَّرَ عباده بها ونَبَّهَهُم إلى قَدْرِها وواجبهم نحوها، وجَعَلَ- بعد كل نعمة – جملة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فاصلة؛ ليعرف الناس بها موضع النعمة المسداة إليهم المطلوب شكرها والاعتراف بِقَدْرِها، من هنا تردَّدَ التقرير والتبكيت بقوله (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) بسبب اختلاف المتعلق (اختلاف النعم)، فالتقرير مَرَّةً مُتَعَلِّقٌ بنعمة تعليم القرآن، ومَرَّةً مُتَعَلِّقٌ بنعمة خلق الإنسان ومَرَّةً مُتَعَلِّقٌ بنعمة ...و ... و ... وهكذا إلى آخر النعم، حيث ذُكِرَتْ جملة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) ثماني مرات عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم ترددت سبع مرات عقب آيات فيها ذِكْرُ النار وشدائدها، وحَسُنَ ذِكْرُ الآلاء عقب ذِكْرِ النار؛ لأن في صَرْفِها ودَفْعِها نِـعَمًا توازي النعم المذكورة، ثم ذُكِرَتْ ثماني مرات أثناء وصف الجنتين الأوليين وأهلهما، ثم ذُكِرَتْ ثماني مرات أثناء وصف الجنتين اللتين من دون الجنتين الأوليين، فهنا تَعَدَّدَ ذِكْر جملة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) بسبب تَعَدُّد المتعلّق، فكان المُرَدَّدُ ثانيًا متعلِّقًا بغير ما تعلَّق به المُرَدَّدُ الأَوَّل، وبعبارة أخرى تَعَدَّدَت جملة الاستفهام التقريري أو التوبيخي (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) بسبب تَعَدُّد النعم، وكان ترداد الاستفهام بها من أجل التقرير بالنعم المعدودة والتأكيد

على التذكير بها كلها والتوبيخ على التكذيب بها، فكلما ذكرــ الله سبحانه وتعالى ــ نعمةً أَنْعَمَ بها على خَلْقِه، قَرَّرَ عليها ووَبَّخَ على التكذيب بها، والاستفهام مشوب بالعتاب؛ لتنبيه المؤمنين وتوبيخ الغافلين كما يرى أبو حيان(١)، أو للتأكيد والمبالغة في التقرير كما يرى القرطبي(٢)؛ لأن الله تعالى عدَّد فيها نعمه على خلقه وأراد أن ينبههم إليها ويقررهم بها، فخاطبهم بقوله (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان)، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا فعززتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن صرورة (لم تحج قط) فحججت بك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلًا فحملتك، أفتنكر هذا؟(٣).

هذا، ويتفق ترداد الجمل في سورتي النمل والرحمن في الدلالة على ضرورة الإقرار بقدرة الله وشكر نعمه، لكن يبقى الفرق بين الترداد في السورتين متمثلا في نهوض الترداد خلال سورة النمل بلفت الأنظار إلى صاحب النعم (الإله المُنْعم) والإقرار بقدرته، ونهوض الترداد خلال سورة الرحمن بلفت الأنظار إلى النعَم الإلهية ذاتها، ووجوب شكرها وعدم الجحود بها.

جـــ – الترداد في سورتي القمر والمرسلات:

- **الترداد في سورة القمر:**

في سورة القمر تَرَدَّدَ قولُه تعالى: (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) ست مرات، في الآيات: ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١، وجاءت مقرونة بقوله تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أربع مرات، وغير مقرونة بها مرتين، وتَرَدَّدَ قولُه: (فَكَيْفَ

(١) يرى أبو حيان أن التكرار في سورة الرحمن للتأكيد والتنبيه والتحريك.البحر المحيط ٥/ ١٩٠.

(٢) تفسير القرطبى ١٧/ ١٦٠.

(٣) المرجع السابق.

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) أربع مرات في الآيات: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠، وبتأمل سورة القمر نجد أنها تمثِّل رسالةَ تحذيرٍ موجهة إلى كفار مكة، تخاطبهم بأسلوب فيه نبرةٌ حادة، وإيقاعٌ صاخب، مملوء بنغمات التهديد والوعيد، وتعرض عليهم – عن طريق الترهيب – صور مصارع مكذبي الرسل من الأمم السابقة (مصارع قوم نوح، وقوم هود "عاد"، وقوم صالح "ثمود"، وقوم لوط، وآل فرعون) وكيفية التنكيل بهم، لعلهم يرتدعون ويهتدون، وقد عبّر أسلوب القرآن عن صور هلاك تلك الأمم مستخدما ترديد جملتَي: (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) و(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) عدة مرات، وكان لترداد هاتين الجملتين وقعٌ شديدٌ في مقام التهديد والترهيب، حيث خدم ترددهما الجانب الدلالي الرامي إلى ردع مشركي مكة؛ لأن ترددهما كان إنذار الترهيب كفار مكة، كي يجددوا عند سماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا، وأن يقرع لهم بالعصا مرات، لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة[١]، يؤكد ذلك أن الاستفهام (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) لم يكن يُرَادُ بِهِ حَقِيقَتُهُ، بل يصلح أن يراد به الحثّ، ويصلح إنذارًا وتخويفًا وزجرًا وترهيبًا[٢]، وكذلك الاستفهام (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)، لا يُرَادُ بِهِ حَقِيقَتُهُ أيضا، بل يُرَادُ بِهِ تهويل العذاب والتنكيل الذي حَلَّ بالأقوام التي كذبت الرسل، وتذكير المتلقي بما حَلَّ بهم[٣].

- **<u>الترداد في سورة المرسلات:</u>**

في سورة المرسلات تردد قوله تعالى (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) عشر مرات في الآيات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩، وكان الترداد عَقِب تفصيل القول عن المعاد وعَقِب الإشارة إلى قدرة الله على خلق الناس

(١) ينظر الكشاف: ٤/٤٠ وينظر البحر المحيط: ٨/١٨٠.

(٢) ينظر التفسير الكبير: ٢٩/٤٠.

(٣) البحر المحيط: ٨/١٧٦.

والأرض والجبال والأنهار وعَقِب ذِكْر جزاء الكافرين وثواب المتقين، للإنذار والترهيب والتهديد والوعيد، أي: لإنذار المكذبين بالمعاد والمكذبين بقدرة الله على الخَلْق والمكذبين بعقاب الكافرين وثواب المتقين، حيث ذكر الله – تعالى– الويل وتوعد به المكذبين ورردده عند كل تكذيب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر(١)، لذا ردد الويل للمكذبين مرة بعد مرة، ولا شك أن ذلك الترداد يمثل غاية الإنذار ومنتهى الترهيب.

هذا، ويتفق ترداد الجمل في سورتي القمر والمرسلات في أن الجمل المرددة في السورتين هي لبنات أساسية في خطاب إنذار موجه إلى مشركي مكة، يبين لهم نهايات المكذبين؛ ليأخذوا منها العبرة، فيتخلصوا من شرور أنفسهم ويتبعوا الحق، يتأكد ذلك في نهاية سورة القمر عند خطابهم بـــ: (أَكُفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ/٤٣)، وفي نهاية سورة المرسلات عند خطابهم بـــ:(كُلُوا وتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُون/٤٦)، لكن مع الأسف، لم يأخذ مشركو مكة العبرة والعظة من مهلك السابقين، ولم يفيدوا من الإنذار الموجه إليهم، لا في سورة القمر ولا في سورة المرسلات، نستنتج ذلك من قول الله تعالى في مطلع سورة القمر:(ولَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ)٤،٥، ومن قوله تعالى في ختام سورة المرسلات: (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)، أي: بما أنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يأخذون منه العبرة، فإنهم لا يؤمنون بغيره ولا يعتبرون بسواه.

(١) الجامع لأحكام القران للقرطبي : ١٩ / ١٥٨.

هذا، ولأسلوب الترداد أمثلة أخرى في القرآن لكنها لا تمثل في مواضعها ظاهرة كما في سور: الشعراء، والنمل، والقمر، والرحمن، والمرسلات[1].

(١) مثل ترداد لفظ الكتاب ثلاث مرات في قوله تعالى: "وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب". آل عمران/٧٨، فليس في هذا الكلام تكرار؛ لأن الأمر يخضع للسياق ولموقعية اللفظ في الجملة، فلفظ الكتاب في كل موقع= =من الجملة له معنى مخالف لمعناه في الموقع الآخر أو السياق الآخر، فلفظ الكتاب الأول يعني ما كتبوه بأيديهم وهم يحرفون الكلم، ولفظ الكتاب الثاني يعني التوراة، ولفظ الكتاب الثالث يعني جنس كتب الله جميعا. انظر: تفسير القرطبي والرازي.ومثل ذلك ترداد لفظ الميزان ثلاث مرات في سورة الرحمن في قوله تعالى: والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان/ ٧-٩، فهو يعني العدل بين الخلق في المرة الأولى، ويعني العدل أو آلة الوزن في المرة الثانية، ويعني آلة الوزن في المرة الثالثة، وصدق ابن الأثير عندما قال: اعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئا منه فأنعم نظرك فيه، فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتتكشف لك الفائدة منه. المثل الثائر ١٤٩/٢، وانظر التفسير الكبير مج ١٥ ج٢٩/ص٩٠

المبحث الثاني

أسلوب الترداد من الناحية الصوتية

في هذا المحور أَعْرِضُ عَلَى علم اللغة الحديث أمثلةً من الجُمَل المُرَدَّدة في السياق القرآني؛ لتحليل أنسجتها المقطعية[1] تحليلًا صوتيًّا لمعرفة مدى خفتها أو ثقلها على اللسان والسمع، ومعرفة علاقة صورتها السمعية بالدلالة ومدى خدمتها الجانب الدلالي أو العكس، وما كنت لِأَعْرِض تلك الأمثلة على علم اللغة الحديث إلَّا لِمَا له من مناهج على قدر كبير من الموضوعية والدقة العلمية، يستطيع أيُّ متخصِص تطبيقها، فتأتى أحكامه وأقواله دقيقة، مَن يقرؤها لا يملك إلَّا أنْ يُــقِــرَّ بِها.

(١) المقطع عبارة عن دفقة صوتية، وتتكون الكلمات من مقاطع، فقد تتكون الكلمة من مقطع واحد أو مقطعين أو من ثلاثة مقاطع، وأقصى نظام مقطعي تسمح به اللغة العربية هو ستة مقاطع، وتعتبر الكلمة التي بها ستة مقاطع كلمة ثقيلة جدا، ويكون استعمالها نادرا وغير محبب. اقرأ عن النظام المقطعي والمقاطع الصوتية بالمراجع الآتية: الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس صـــ ١٥٩ اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان صـــ ٦٥، مناهج البحث في اللغة العربية للدكتور تمام حسان صـــ ١٢٣، في علم اللغة العامل لدكتور عبد الصبور شاهين صـــ ١٠٧

أ – التقسيم المقطعي لجملة: (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) المُرَدَّدة في سورة الشعراء[١]

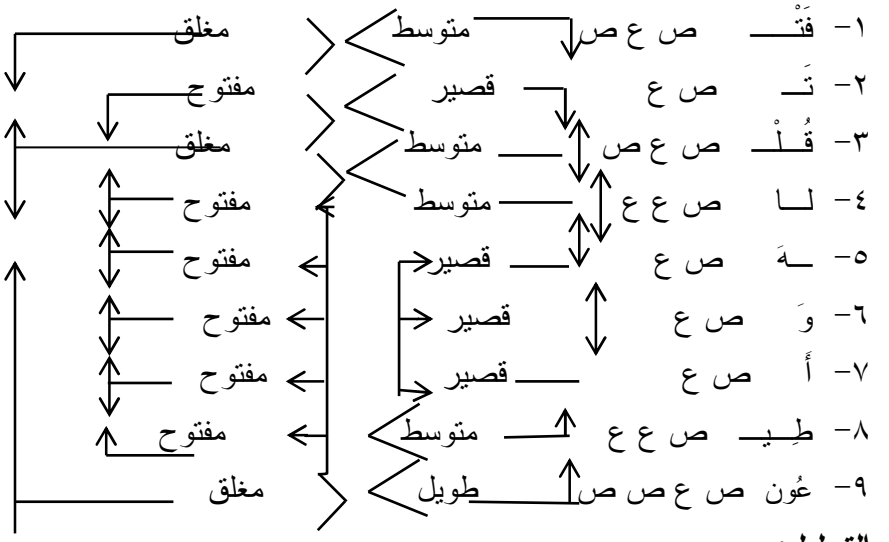

التحليل:

بالنظر في النسيج المقطعي للجملة المُرَدَّدَة يتبين ما يلى:

١- من حيث الصوامت والصوائت، اشتملت جملة (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) على عشرة صوامت هي: (ف/ ت/ ق/ ل/ هـ/ و/ ء/ ط/ ع/ ن)، من بين هذه الصوامت أربعة أصوات شديدة هي: (ت/ ق/ ء/ ط)، هذه الأصوات لها وضوح سمعي[٢]، ومن بينها صوتان من أصوات القلقلة هما: (ق/ ط)، هذان الصوتان فيهما ارتفاع في الصوت، تلمسه الأذن.

٢- المقاطع التي تكَوَّنَت منها بِنْيَة (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) مقاطع متقاربة من حيث الكم، كلها مقاطع قصيرة ومتوسطة، عدا المقطع الأخير في حالة الوقف عليه.

---

(١) هذا التقسيم المقطعي في حالة الوقف.

(٢) الشدة صفة فسيولوجية تميز فيها الأذن الصوت الشديد القوي من الصوت الضعيف الخافت.

٣- المقاطع التسعة التي تكَوَّنَت منها بِنْيَة (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) مقاطع متتابعة متناسقة صوتيا من حيث الكم والكيف.

٤- ما اشتملت عليه بِنْيَة (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) من مقاطع متقاربة من حيث الكم ومتناسقة من حيث الكيف يجعل نطقها يتم بسلاسة، وسماعها يتم بوضوح، ويجعل وصولها إلى العقل والقلب يتم بسرعة، فحين تسمعها أو تتلوها لا تكاد تخرج من الشفتين حتى تستقر دلالتها في العقل والقلب مُحَقِّقَةً الهدف الذي من أجله تردَّدَت، ويترك ترددها في القلب صدى كبيرا، فيعيش المتلقي إيحاء دلالة ألفاظ (فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) وما يصاحبها من خوف من الله ورهبة من معصية الرسل فيما يبلغون عن ربهم.

بـ - التقسيم المقطعي لجملة (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه)المُرَدَّدة في سورة النمل[1]

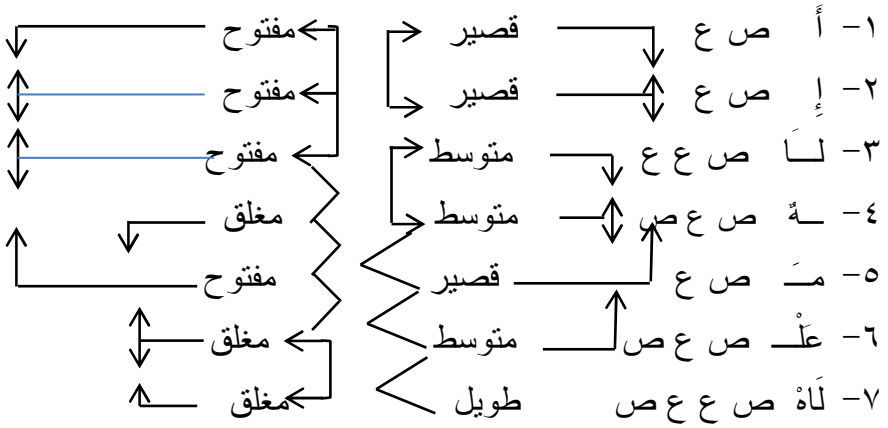

(١)هذا التقسيم المقطعي في حالة الوقف.

التحليل:

بالنظر في النسيج المقطعي لجملة (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه) المُرَدَّدة في سورة النمل نجده يكشف عن شيء مخالف لِمَا مَضَى في سورة الشعراء، حيث يتبين ما يلى:

١- من حيث الصوامت يوجد تجانس استهلالي بين المقطعين الأول (أَ) والثاني (إِ)؛ لاعتمادهما على صوت الهمزة مع اختلافهما فقط في الحركة التي يعتمد عليها كل منهما، فالحركة في الأول أمامية قصيرة متسعة، وفي الثاني أمامية قصيرة ضيقة، ويوجد تجانس غير تام بين المقاطع: الأول (أَ) والثاني(إِ) والرابع(هٌ)؛ حيث إن الصامت في المقطعين الأول والثاني هو الهمزة، والصامت في المقطع الرابع هو الهاء، وعلى الرغم من الاختلاف في نوع الصامت بين الهمزة والهاء لكن عناصر التشابه بينهما في المخرج والصفات أدت دورها في الانسجام، فالهمزة صامت حنجري شديد مجهور مرقق[1]، والهاء صامت حنجري رخو مهموس مرقق، هذا التجانس بين المقاطع أدى دورًا كبيرًا في الانسجام.

٢- المقاطع الأربعة الأُوَل التي تُكَوِّنُ بِنْيَة (أَإِلهٌ) متناسقة صوتيا من حيث الكم، حيث تبدأ بمقطعين قصيرين يتلوهما مقطعان متوسطان، والتناسق نابع من كون المقاطع الأربعة متقاربة في دفقة النفس، أما المقاطع الثلاثة الأخيرة التي تُكَوِّن بِنْيَة (مع الله) فهي مقاطع متدرجة في الدفقة الصوتية في حالة الوقف

(١) هناك اختلاف بين اللغويين القدماء والمحدثين بخصوص جهر الهمزة، فالقدماء يرونها مجهورة، والمحدثون فريقان، منهم من يراها مهموسة كـ: تمام حسان ومحمود السعران، ومنهم من يراها لا مجهورة ولا مهموسة، ويبرر دكتور البدراوي زهران ذلك الاختلاف بأن وصف القدماء الهمزة مرتبط بالقرآن ومستمد من نطقها كما نطقه الأولون في القراءات القرآنية مجهورا. انظر: مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان صـ ١٣١، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي للدكتور محمود السعران صـ١٩١، وفي علم الأصوات اللغوية للدكتور البدراوي زهران صـ٠٠٠

على آخرها، حيث تبدأ بمقطع قصير مفتوح، فمتوسط مفتوح ثم تنتهي بمقطع طويل، وتشعر بتناسق عجيب في النطق بنسيج مقاطع (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه)، حيث البدء بمقطعين قصيرين ثم متوسطين عند النطق بـ (أإلهٌ)، ثم استئناف النطق بـ (مع الله) تَدَرُّجًا من المقطع القصير إلى المتوسط إلى الطويل في حالة الوقف على نهاية الجملة وعدم وصلها بما بعدها.

٥- وقوع النبر[١] Stress على المقطع الخامس (مَ) والمقطع الأخير (لاه) عند الوقف على هاء لفظ الجلالة الله في الجملة المترددة، هذا النبر يعزز من دلالة الاستفهام في الجملة المرددة (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه)، ويسهم في تشكيل ملامح الصورة السمعية التي ترسمها الجملة المرددة، وكلما ترددت ساعد ترادها فى غزو سمع المتلقي وإيصال دلالتها إليه بكل قوة؛ لأنه عندما تُنْطَق الجملة المرددة (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه) بنغمة تقريرية بالوقوف على هاء لفظ الجلالة بعد الحركة الطويلة، تتلقى أذن السامع نغمة قوية توحى بالخوف من الشرك بالله واعتقاد إله معه، ويزداد الإحساس بالخوف كلما ترددت الجملة مع الوقف على صوت الهاء من لفظ الجلالة ومد صوت اللين السابق له مباشرة وتنغيمه[٢].

٦- صدور نغمة الاستفهام عالية في حالة الوقف على هاء لفظ الجلالة بعد الحركة الطويلة تجعل النص القرآني يأتي في نسقه وسياقه حاسما في

---

(١) النبر Stress كما يراه الدكتور إبراهيم أنيس هو نشاط جميع أعضاء النطق فى وقت واحد عند النطق بمقطع ما، فيصبح صوت المقطع عاليا واضحا فى السمع، ، وسماه الدكتور محمود السعران: الارتكاز، وعرَّفه بأنه درجة قوة النفس التي يُنْطَق بها صوت أو مقطع.الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس صـ ١٦٩، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي للدكتور محمود السعران صـ ١٨٩، وانظر دراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر صـ ٢٢١

(٢) التنغيمIntonation كما عرَّفه الدكتور محمود السعران هو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) فى درجة الجهر فى الكلام، انظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي صـ ١٩٣.

مخاطبة المتلقي، وتجعل كيانه كله يتفاعل مع المسموع، فَيُقِرّ بوحدانية الله ويعترف بها لا إراديا، فينطق حاله ولسانه بـ (لا إله إلا الله)، وفي كل مرة يتردد فيها قوله تعالى (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه) يتجدد الإقرار بعدم وجود إله مع الله، وهذا هو الإبداع الصوتي، فما تحمله الجملة المرددة من خصائص ومزايا صوتية، يعد عاملا داعما لتثبيت الجانب الدلالي،ومن يرى أن ترداد (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه) مجرد تكرار وحشو لا داعي له، فنظرته تلك نظرة سطحية، لا يؤيدها علم اللغة الحديث، بل يثبت عكسها، فالجمل المرددة ليست مكررة بلا فائدة، بل هي مرددة بصورة متميزة، متجددة في دلالتها كلما ترددت، والنطق بنسيجها المقطعي وما اشتملت عليه من فونيمات صوتية تركيبية وما صاحبه من فونيمات صوتية فوق تركيبية، كل ذلك يمثل قمة الإبداع الصوتي.

٧- الوقفُ الصوتى[١] على الهاء بعد الحركة الطويلة في الجملة المرددة تَوَافَق مع دلالتها؛ لأنه ساعد على وضوح نبر المقاطع المنبورة في كلماتها مما عَزَّزَ من دلالتها وساعد في وضوح الصورة السمعية التي ترسمها وتقرع بها أسماع المخاطبين من قريش وغيرهم من المتلقين في كل زمان ومكان.

٨- شاركت العناصر الصوتية الثلاثة (النبر والتنغيم والوقف) فى تحديد الدلالة ووضوح الصورة السمعية، فالأداء الصوتى لـ (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه) بقراءتها

(١) يعتبر الوقف الصوتي فونيما من الفونيمات فوق التركيبية المصاحبة للكلام، وهو مثل النبر والتنغيم يقوم بدور وظيفي فى تحديد دلالة ما ينطق به المتكلم، واختلف الدارسون فى تسميته، فمنهم من أطلق عليه مصطلح المفصل Junctur ، وعرفه بأنه سكتة خفيفة بين كلمات أو مقاطع فى صوت كلامي بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ ما، أو مقطع ما وبداية آخر، من هؤلاء: دكتور أحمد مختار عمر، ومنهم من أطلق عليه مصطلح الوقف مثل دكتور تمام حسان. انظر دراسة الصوت اللغوي صـ ١٩٦ واللغة العربية معناها ومبناها صـ ٢٧٠.

بنغمة[1] مقرونة بارتفاع طبقة الصوت مع الوقف عليها لا يستثير مشاعر المتلقي ويحثه على الإقرار بنفي الشرك فحسب، بل يُشْعِر بغضب المخاطِب (رب العزة) من جحود العباد باعتقادهم وجود إله مع الله.

٩- بجانب الوقف الصوتي والنبر والتنغيم هناك عناصر صوتية أخرى تسهم فى تزكية دلالة الجملة المُرَدَّدَة (أإلهٌ معَ الله) وبيان روعة التعبير بها وبترددها، أعني طرق تنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء، عند عدم الوقف على نهاية الجملة المرددة، أي:عند وصلها بما بعدها في نهاية الآية للوقف فقط على رأس الآية، لعلك تلاحظ الأسلوب الإنشائي الطلبي بـ (أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه) وبعده الأسلوب الخبري: (بلْ هُمْ قَومٌ يَعْدِلون) في نهاية الآية رقم٦٠، وبعده الأسلوب الخبري: (بلْ أكثَرُهُم لا يعْلَمون) في نهاية الآية رقم ٦١، وبعده الأسلوب الخبري: (قليلا ما تَذَكَّرون) في نهاية الآية رقم٦٢ ، و.....إلى نهاية الآيات التي بها الجملة المُرَدَّدَة.

١٠- تلمس روعة التعبير القرآني بالتنويع الصوتي بين الخبر والإنشاء عند عدم الوقف على نهاية الجملة المُرَدَّدَة (أإلهٌ معَ الله)، أي: عند قراءة الآية كاملة بوصل الجملة المُرَدَّدَة (أإلهٌ معَ الله) بما قبلها وما بعدها حتى نهاية فاصلة الآية والوقف عليها، تماما مثلما تلمسه حين تلوينه بالتنغيم عند الوقف على نهاية الجملة المُرَدَّدَة، كل هذا التنويع والتلوين الصوتي يساعد على وصول رسالة الترداد إلى المُتَلَقِّي ويضفى على النص القرآني حركة وحياة، ويمنحه عذوبةَ نُطْقٍ وسمَاع، وسهولةَ حِفْظٍ واسترجاع.

١١- تَكَوُّن نسيج (أإلهٌ معَ الله) من سبعة مقاطع بهذه الصورة من شأنه أن يُحْدِث انسجامًا صوتيًّا عجيبا، يأتي معه نطق الكلمات مقرونًا بِوَقْعٍ موسيقيٍّ مؤثرٍ في كيان القارئ أو المتلقي، وَقْع تستريح له الأذن، وتطرب له النفس،

(١) يرتبط التنغيم بالحركات الجسمية المصاحبة لعملية الأداء الصوتي (كالعلامات التى تظهر على الوجه وحركة الأيدي) ارتباطا كبيرا لما له من مشاركة فعالة فى معاونة التنغيم فى تحقيق الدلالة المقصودة. انظر: الدلالة اللفظية للدكتور محمود عكاشة ص ٩ ، ١٠ .

ويتأثر بدلالته العقل؛ لأنه عندما يُنْطَق القول القرآني (أَإلهٌ معَ الله) بنغمة تقريرية هابطة عميقة، مع الضغط على المقطعَين الخامس (مَـــ) والأخير(لاه) تتلَقَّى أُذُن المتلقي تلك الدفقة الصوتية بهذه الكيفية، فيعيش إيحاء الدلالة في فيض قدرة الرب الواحد القادر على كل شيء.

١٢- المقاطع التي تكوَّنَت منها بِنْيَةُ (أَإلهٌ معَ الله) مقاطع متتابعة متناسقة صوتيا من حيث الكم والكيف، لدرجة أنك ما إنْ تسمعها أو تتلوها لا تكاد تخرج من شفتيك حتى تستقر دلالتها في عقلك وقلبك مُحَقِّقَةً الهدف الذي من أجله جاءت مرددة، ويترك ترددها في نفسك صدى كبيرا، وما ساعد على سرعة وصولها إلى القلب إلا ما هي عليه من بناء محكم ونسق صوتي منسجم، يقف محلل و الأصوات أمام تناسقها في خضوع وخشوع.

جـ - التقسيم المقطعي لجملة:(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)، المُرَدَّدة في سورة القمر[1].

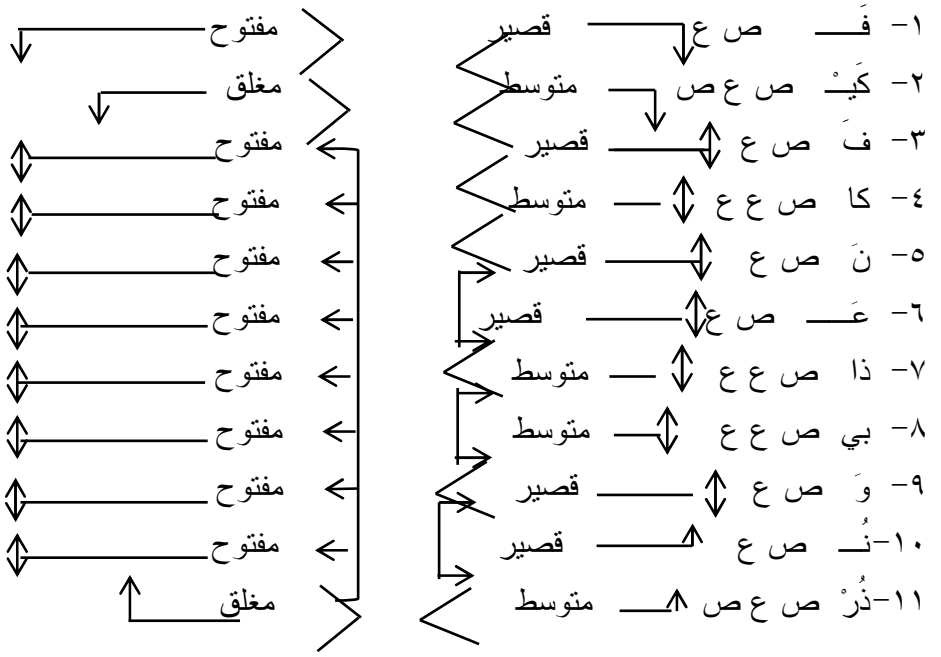

(١) هذا التقسيم المقطعي في حالة الوقف.

التحليل:

بالنظر في النسيج المقطعي لجملة (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) المُرَدَّدَة في سورة القمر يتبين ما يلى:

١- من حيث الصوامت والصوائت:

- خلت كلمات الجملة المردَّدة من الصوامت المتنافرة، أما الصوائت التي تنتهي بها المقاطع المنفتحة فهي متسقة، حيث اعتمدت الجملة كلها في مقاطعها المنفتحة على الحركة الأمامية المتسعة ما بين قصيرة وطويلة، فالمقطع رقم (١) منفتح يعتمد على الحركة الأمامية المتسعة القصيرة، وكذلك المقطع رقم (٣)، والمقطع رقم (٥)، والمقطع رقم (٦)، والمقطع رقم (٩)، أما المقطع رقم (٤) فيعتمد على الحركة الأمامية المتسعة الطويلة، وكذلك المقطع رقم (٧)، (٨).

- يوجد بين المقطع الأول (فَـــ) والثالث (فَ) تجانس استهلالي (يسمى بمصطلح Alliteration) في الصوامت والصوائت معا، أي: اتحاد في الصوت من حيث الصامت والصائت، وهذا التجانس في عمومه يتعاون مع غيره في إعطاء ما يعرف بالتماثل Assimilation في مجمل القول الكريم، وعلى ذلك فالتجانس بين المقطع الأول والثالث تجانس من كل الوجوه، كَمًّا ونوعا، أي: تجانس تام بسبب التماثل التام بين المقطعين.

- يوجد بين المقطع الأول (فَـــ) والتاسع (وَ) تجانس غير تام، وعلى الرغم من أن التجانس غير تام بسبب اختلاف الصائت الذي يعتمد عليه كل مقطع، لكن أوجه التشابه بينهما متعددة، فهناك تشابه في نوع الصائت وكمه (كلاهما فتحة قصيرة)، وهناك تشابه في الصامت الذي يعتمد عليه كل مقطع، فكلاهما متحد في معظم الخصائص، فالفاء والواو شفويان يخرجان من مخرج واحد، وأيضا مرققان.

٢- من حيث نوع المقاطع وكمها:

- يوجد بين المقطع الخامس (نَ) والعاشر(نُ) اتحاد في الكم والنوع، فكل واحد منهما قصير مفتوح، وبينهما أيضا تجانس استهلالي من حيث الصامت الأول، في حين بينهما تخالف من حيث الصائت الأول، حيث إن المقطع الخامس يعتمد على الحركة الأمامية القصيرة المتسعة Open، أما العاشر فيعتمد على الحركة الخلفية القصيرة الضيقة Colose، أما نهاية المقطعين فهما متحدان من حيث الانفتاح.

- أما من ناحية نوع المقاطع من حيث الانغلاق والانفتاح فيوجد بين مقاطع القول الكريم تناسق عجيب، فالمقاطع كلها مفتوحة متماثلة من حيث النوع، لا يتخللها تخالف من حيث النوع إلا في المقطعين الثاني والأخير، فهما مغلقان، وعندما تأتي أنواع من التخالف Dissimilation على هذه الصورة وسط هذا التماثل يَحْدُث الأثر السمعي الجميل الذي نحس به ولا ندرك كنهه.

- ومن زاوية كم المقاطع نجد المقاطع مرتبة ترتيبا متناسقا على نحو ما تشير إليه أسهم الجهة اليسرى، حيث نجد المقاطع مرتبة ترتيبا دقيقا، فتجد مقطعا قصيرا يعقبه متوسط وفي ذلك تخالف، ثم قصيرا آخر يعقبه متوسط وفي ذلك تخالف أيضا، ثم قصير يعقبه قصير وفي هذا تماثل، يعقبه متوسط يليه متوسط وفي هذا تماثل، ثم قصير يليه قصير وفي هذا تماثل، يعقبه في النهاية متوسط وفي هذا تخالف، والتماثل والتخالف يَحْدُثان في تناسق عجيب (تماثل يتخلله تخالف)، هذا التناسق يؤدي دورا مهما في السمع والنطق، فيُحْدِثُ وَقْعًا موسيقيًّا على الأذن ويُحْدِثُ سلاسةً في النطق ويعطي صورة صوتية مؤثرة.

٣- المقاطع التي تكَوَّنَت منها بِنْيَةُ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) مقاطع متتابعة متناسقة صوتيا من حيث الكم والكيف، لدرجة أنك حين تسمعها أو تتلوها تستقر

دلالتها في العقل والقلب مُحَقِّقَةً الهدف الذي من أجله سِيقت وترددت، ويَتْـرُك ترددُها في النفس عِبْرَةً زاجِرَة، وحِكْمَةً بالِغَة.

٤- الانسجام الصوتي في بِنْيَةُ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) يمثل صورة من صور الإبداع اللغوي مبهرة، ولا يتمثل الإبداع اللغوي في الانسجام الصوتي فقط، بل إن كل عنصر من عناصر البناء اللغوي قد أدى دوره عند الوظيفة الصوتية والوظيفة المورفيمية والوظيفة التركيبية والوظيفة الدلالية، فالفاء من (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) جاءت لتعطي النص تماسكًا وقوة، فَبِها تَمَّ ترابط البناء اللغوي، فكل مرة ترددت (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) كان ترددها مترابطا مع ما قبله ومتعلقا به بواسطتها، فأدت الفاء وظيفة على المستوى المورفيمي، واختيار الفعل (كان) في الزمن الماضي فهو اختيار دقيق، جَعَلَ الفعل يفيد تَحَقُّق وقوع العذاب، مما يجعل الخوف من عقاب الله وانتقامه ماثلا في ذهن المتلقي دائما، وأما تقديم خبر كان (كيف) وتصَدُّرُه التركيب قبل كان واسمها (عذابي) فله دلالة كبرى، حيث يتضح من تقديمه مدى الاهتمام به؛ لكونه شديدا جدا، وأصل التركيب: كان عذابي ونذري كيف، لكن البناء القرآني البليغ عبر عنه بـ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)، أي: شديدا وقويا وعنيفا كان كان عذابي وإنذاري.

د- التقسيم المقطعي لجملة: "فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان" المُـرَدَّدة فـي سـورة الرحمن[1]

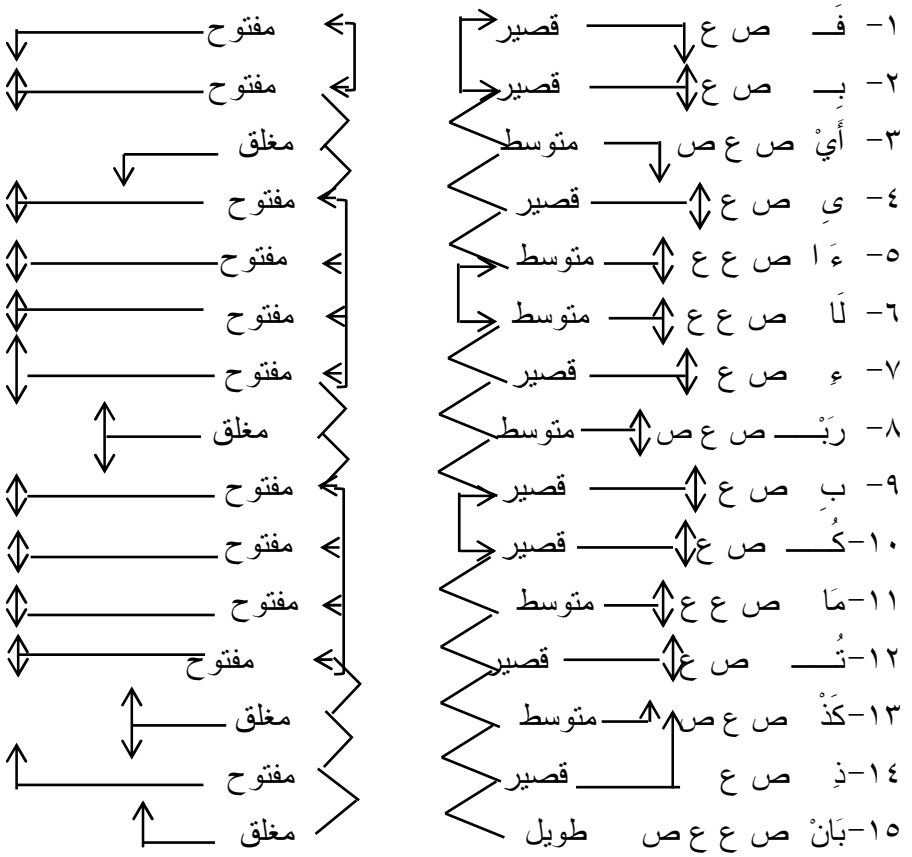

التحليل:

بالنظر فى النسيج المقطعى لجملة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) المُرَدَّدَة في سورة الرحمن يتبين ما يلى:

أ- من حيث الصوامت والصوائت

خلت كلمات الجملة المرددة من أي تنافر بين أصواتها، وعدم التنافر بين الأصوات من علامات الفصاحة[2].

---

(١) هذا التقسيم المقطعي في حالة الوقف.

(٢) انظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى صـ ٩٧ وما بعدها.

بـ- من حيث نوع المقاطع وكمها

- اعتمدت الجملة المُرَدَّدَة على المقاطع المتوسطة والقصيرة وهى مقاطع متقاربة من حيث دفقة النفس.

- اعتمدت الجملة المُرَدَّدَة على المقاطع المفتوحة (بنسبة ٧٣%)، حيث جاء المقطعان الأول والثاني مفتوحين يعقبهما مقطع مغلق، ثم جاءت بعد ذلك أربعة مقاطع مفتوحة يعقبها مقطع مغلق، ثم أربعة مقاطع أخرى مفتوحة يعقبها مقطع مغلق أيضًا، ثم الختام بمقطع مفتوح يعقبه مقطع مغلق فى حالة الوقف(١).

- يوجد بين مقاطع الجملة المرددة تجانس على النحو التالى: فالمقطع الأول والثاني والرابع والسابع والتاسع والعاشر والثاني عشر والرابع عشر كلها مقاطع قصيرة متماثلة، ويتخلل هذا التماثل تخالف على النحو التالى: فالمقاطع: الثالث والخامس والسادس والثامن والحادي عشر والثالث عشر كلها مقاطع متوسطة، وهذا التماثل والتخالف يحدث فى نسق صوتي رائع.

- يوجد بين المقطع الخامس (آ) والمقطع السادس(لا) والمقطع الحادي عشر (ما) تجانسًا تاما من حيث الكم والنوع، لأن كلا منها قد اعتمد على الحركة الأمامية الطويلة المتسعة، كما نجد أنواعًا للتجانس الناقص وغير ذلك، مما يؤكد عظمة البناء القرآني.

---

(١) أما فى حالة النغمة المسطحة ووصل الكلام فالختام بثلاثة مقاطع مفتوحة.اقرأ عن النغمة المسطحة فى كتاب: اللغة العربية معناها ومبناها صـ ٢٣٠ وما بعدها

من التحليل السابق لجملة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) المُرَدَّدَة في سورة الرحمن نستنتج ما يلي:

١- أتت الجملة المرددة في صورة آية كاملة، وتميزت عناصر بِنْيَة الآية المُرَدَّدَة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) بالانسجام الصوتي، فجاءت تحمل فى ذاتها نغمًا عذبًا لذيذًا فى السمع خفيفًا على اللسان.

٢- ما تحمله الآية المُرَدَّدَة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) من عذوبة فى النطق وحُسْنٍ فى الوَقْعِ قد جعل ترددها ترددًا محببًا مقبولًا، تستريح له النفس ويقبله الطبع ولا يَمَلُّهُ مهما تردد عشرات المرات، وقد رُوِى أن قيس بن عاصم أحد سادة بنى تميم وبلغائهم المُفَوَّهِين حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من قومه، قال للرسول الكريم: اتلُ علَىَّ مِمَا أُنْزِل عليك من القرآن، فقرأ الرسول عليه سورة الرحمن، فقال قيس للرسول: أَعِدْهَا، فأعادها الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثًا، فقال قيس بن عاصم وقد بلغ منه الإعجاب والاستحسان الغاية: والله إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفله لمغدق (كثير المياه) وإنَّ أعلاة لمثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فما قال قيس بن عاصم للرسول: أَعِدْهَا، وما قال: إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة إلا بسبب ما تميزت به السورة من وَقْعٍ سَمْعِيٍّ وما تَفَرَّدت به من ترداد (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) عشرات المرات، ترددا منح السورة عذوبةً في النطق وحُسْنَ وَقْعٍ في السمع.

٣- ترداد (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) بما يحمل من مقومات الجمال والإبداع الصوتي له أثره النفسي الفريد، فهو لا تستريح له النفس فحسب، إنما يوقظ المشاعر ويستثير الأذهان ويشحذ الهمم أيضًا، ويحس مستمعه باستجابة يدرك عمقها فى نفسه، لذلك فزع كفار قريش وأئمتهم حينما أدركوا تأثير القرآن من ناحية عظمته الصوتية، فتواصوا بالإعراض عنه، قال تعالى: "وقالَ الذينَ

كفروا لا تَسْمَعُوا لِهَذا القرآنِ والْـغَـوْا فِيهِ لَـعَـلَّكُمْ تَـغْـلِبُون" [١]، وثبت فى بعض الروايات أنه لَمَّا نزلت سورة الرحمن وحفظها الصحابة، ندب عبدالله بن مسعود نفسه لتلاوتها جهرًا عند مقام إبراهيم بالكعبة حتى يبلغها قريشًا، لعل منهم من ينيب إلى الله ورسوله حين تقرع سمعه، ومضى يتلوها رافعًا بها صوته، فتجمع عليه بعض المشركين وضربوه حتى تركوا آثارًا بوجهه[٢]، وهم ما فعلوا ذلك بابن مسعود إلا لأجل ما فى ترداد (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) من إيقاع صوتي يَخْرِق سَمْعَهم وسَمْعَ مَنْ فى آذانهم وَقْرٌ.

٤- جاءت الآية المُرَدَّدَة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) متجاذبة مع ما قبلها من الكلام متفقة معه فى نفس النغم بلا ثقل أو اضطراب، تمثل مع ما قبلها كيانًا واحدًا متكاملًا، وإن ما ساعد على تجاذب هذه الآية مع ما قبلها وتعانقها معه هو مجيؤها بفاصلة مبنية على صوت أنفي (النون) مسبوق بصوت لين (الألف اللينة)، هى نفس الفاصلة المبنية عليها السورة كلها[٣]، ومثل هذه الفاصلة تساعد على الترنم والترخيم لا على الثقل والتنافر[٤].

٥- الآية المُرَدَّدَة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) لم تدخل فى السورة إلا بعد اثنتى عشرة فاصلة فى اثنتى عشرة آية، كلها من نغم فاصلة الآية المُرَدَّدَة، وهذا من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم، ويربطها به، فإذا تكررت لفظة أو جملة بعد ذلك لم تجد الطريق إلى السمع مسدودًا، بل تنفتح الأذن لها وتدعوها إليها وتجذبها نحوها[٥].

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مج٩ ج١٧ص٩٩.

(٣) عدا الآيتين:١٤، ١٥، حيث تنتهي فاصلتهما بالميم كصوت أنفي مسبوق بالحركة الطويلة.

(٤) يقول سيبويه: أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو. كتاب سيبويه ٢٠٤/٤.

(٥) انظر: إعجاز القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب صـــ ٤٠٠.

٦- الآية المرددة في سورة الرحمن: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) لم يأت نسيجها ثقيلا على اللسان أو السمع، ولم يأت ترددها حشوًا مُخِلًّا بالنظم، إنما جاء لغرض وهدف، كأنما يُرَاد الاتساع بها فى الترداد والارتفاع بالصوت والترنم به؛ لتستيقظ مشاعر المتلقي، فيتوجه نظره إلى قدرة الله ومدى عطائه، فيعايش مدى عِظَم نِعَمر به الدنيوية والأخروية، فيؤوب إليه لينجو من العذاب، ويفوز بما عنده من الثواب، فترداد: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) في سورة الرحمن من شأنه أن يوقظ مشاعر المستمعين وأحاسيسهم عن طريق تكرار تذكيرهم بآلاء الله وتقريرهم بها وتوبيخهم على التكذيب بها، فمثل هذا التكرار حريٌّ بأن يؤدى إلى تأمل نعم الله المكررة وشكرها، لذا،عندما قرأ الرسول سورة الرحمن على الجن كانوا كلما أتى على قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذب(١).

٧- الانسجام الصوتي في بِنْيَةُ (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) يمثل صورة من صور الإبداع اللغوي مبهرة، ولا يتمثل الإبداع اللغوي في الانسجام الصوتي فقط، بل إن كل عنصر من عناصر البناء اللغوي قد أدى دوره عند الوظيفة الصوتية والوظيفة المورفيمية والوظيفة التركيبية والوظيفة الدلالية، فالفاء من (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) جاءت لتعطي النص تماسكًا وقوة، فَبِها تَمَّ ترابط

(١) فعن جابر رضى الله عنه-كما جاء في الترمزي- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان) قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد، وقول الرسول الكريم للصحابة (لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردودا منكم) لا يعنى أن سماع سورة الرحمن لم يوقظ مشاعرهم لشكر الله على نعمه، بدليل أن الرسول الكريم لم يعلق إلا على ألسنتهم التى لم تتلفظ بشكر الله تعالى جهرا، أي: لا يلوم إلا ألسنتهم، أما قلوبهم فعامرة بالإيمان ومملوءة بشكر الرحمن صاحب النعم والآلاء.

البناء اللغوي، فكل مرة ترددت (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان) كان ما دخلت عليه مترابطا مع ما قبله ومتعلقا به بواسطتها، فأدت الفاء وظيفة على المستوى المورفيمي، وأما اختيار الفعل (تكذبان) في الزمن المضارع فهو اختيار دقيق، جَعَلَ الفعل يفيد التجدد والاستمرار، مما يجعل وجوب شكر النعم الإلهية موصولا ودائما في حق الخلق.

هـ- التقسيم المقطعى لجملة: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)المُرَدَّدة في سورة المرسلات.

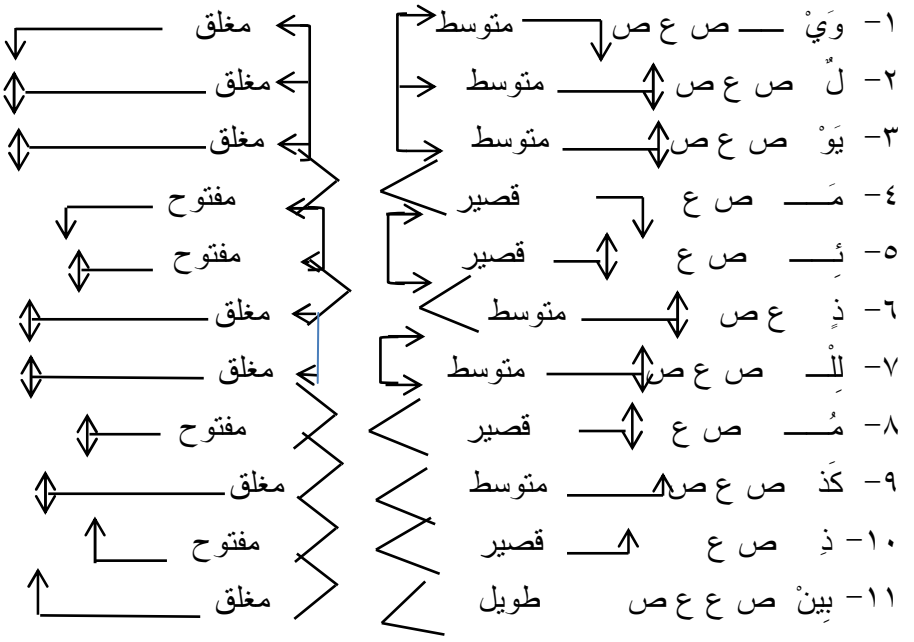

التحليل:

بالنظر فى النسيج المقطعى لجملة: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) المُرَدَّدة في سورة المرسلات يتبين ما يلى:

١- من حيث الصوامت والصوائت

- خلت كلمات الجملة المكررة من أي تنافر بين أصواتها، وعدم التنافر بين الأصوات من علامات الفصاحة(١).

٢- من حيث نوع المقاطع وكمها

- اعتمدت الجملة المُرَدَّدَة على المقاطع المغلقة (بنسبة٦٣%)، حيث جاءت المقاطع: الأول والثانى والثالث مغلقة ثم السادس والسابع والتاسع والحادي عشر مغلقة، وانفتاح المقاطع الصوتية وانغلاقها وتداخلهما معا هو الذي يحدد الوضوح السمعي للبناء اللغوي.

- يوجد بين مقاطع الجملة المرددة تجانس من حيث الكم، على النحو التالي: المقطع الأول والثاني والثالث كلها مقاطع متوسطة، يليها مقطعان (الرابع والخامس) قصيران، ثم بعد ذلك مقطعان متوسطان يليهما أربعة مقاطع: قصير فمتوسط فقصير، ثم الختام بمقطع طويل في حالة الوقف، والمقاطع المتوسطة والقصيرة مقاطع متقاربة من حيث دفقة النفس، وتماثل المقاطع الصوتية في الكم وتخالفها وتداخلهما معا هو الذي يكسب الصورة الصوتية السمعية وقْعًا عذبًا.

- أما إذا ألقينا نظرة على المقاطع من حيث الكيف (الانغلاق والانفتاح) فنرى بين مقاطع القول الكريم تناسقا عجيبا، فالمقاطع كلها مغلقة يتخللها أربعة مقاطع مفتوحة هي: الرابع والخامس والثامن والأخير، فالمقاطع مرتبة ترتيبا دقيقا على نحو ما تشير إليه أسهم الجهة اليسرى، المقطع الأول والثاني والثالث والسادس والسابع كلها مقاطع متماثلة مغلقة، يتخللها تخالف على النحو التالي: المقطعان : الرابع والخامس كلاهما جاء مفتوحا، ثم جاء المقطع الثامن مفتوحا يليه المقطع التاسع مغلقا يليه العاشر مفتوحا، ثم الختام بالحادي عشر مغلقا، هذا التماثل والتخالف يحدث فى نسق صوتي رائع وتناسق عجيب (تماثل يتخلله

(١) انظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى صـ ٩٧ وما بعدها.

تخالف)، هذا التناسق يؤدي دورا مهما في السمع والنطق، فيُحْدِثُ وَقْعًا موسيقيًّا على الأذن ويُحْدِثُ سلاسةً في النطق ويعطي صورة صوتية مؤثرة، فيأتي تأثير الصورة السمعية على نحو ما نلمس الوقع الموسيقي على الأذن وعذوبة النطق على اللسان، كل هذا ما هو إلا جانب من جوانب هندسة الصورة السمعية للقول القرآني الكريم (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) فالنسيج المقطعي متوائم، فيه انسجام صوتي، ينتج عن تلاوته وترداده نَغَمٌ عَذْبٌ، فالبناء محكم، تجلت قيمة كل عنصر منه في دوره الوظيفي وتفاعله مع مقام استعماله، وانبثقت الدلالة عن تمام البناء المحكم وتَعَدُّد تَرَدُّدِه، فحقق البناء القرآني ما يهدف إليه من خلال ترداد البناء المحكم.

تعليـــق أخير:

بعد دراسة ترداد الجمل في سور: الشعراء والنمل والقمر والرحمن والمرسلات من الناحيتين الدلالية والصوتية، بقي شيء مهم، أرى أنَّ له دلالةً كبرى، ألا هو مَكِّيَة تلك السور التي برزت فيها ظاهرة الترداد، وهذا يعني أن ترداد الجمل فى السور المكية، جاء ليخدم غرضًا أصيلًا من أغراض الدعوة الإسلامية، هو تثبيت القلوب على الحق وإقامتها على الشريعة التى تحملها تلك الدعوة؛ لأن التكرار والترداد كلاهما يؤكد الفكرة التى تحملها العبارة المكررة أو المرددة ويُعَمِّقُ جذورها فى كيان الإنسان(١).

(١) يقول جوستاف لوبون: التكرار يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة في كيان الإنسان، فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان؛ لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أفعال الإنسان. انظر: روح الاجتماع تأليف د/جوستاف لوبون صـــ ١٣٩

الخـــــاتمـــــة

من الدراسة السابقة نخلص بما يلي:

١- أسلوب ترداد الجمل في القرآن الكريم أسلوب بياني فريد، فيه إبداعٌ دلاليٌّ وصوتيٌّ يؤكد عظمة النص القرآني، يتضح ذلك في الآتي:

- في ترداد الجمل القرآنية تأكيدٌ على إعجاز القرآن في تفاعل عناصر بنائه اللغوي مع ما يقتضيه حال المخاطبين وما هم عليه من طريقة في القول، حيث خوطب العرب بأسلوب ترداد الجمل في السور المكية (النمل والشعراء والقمر والرحمن والمرسلات) بما هو من سننهم في القول[١]"،وهذا يمثل قمة الإبداع الدلالي والصوتي، أما الإبداع الدلالي فيتمثل في كون أسلوب الترداد وسيلة من الوسائل التي تخدم منهج القرآن في التمكين لدعوة الإسلام من خلال: التأكيد على الأحكام والمواعظ وإقرارها وتوطيد معاني القيم ومعايير الصلاح بنفوس الناس، وأما الإبداع الصوتي فيتمثل في كون أسلوب الترداد – بما يحمل من خصائص ومزايا صوتية – عاملا مساعدا في تثبيت الجانب الدلالي، والدراسة الصوتية التحليلية للجمل المرددة في السور القرآنية التي تناولها البحث تؤكد ذلك.

- في ترداد الجمل في النص القرآنى في سورتي الشعراء والقمر دورٌ فى تماسك نص القصص المتعدد المتباعد، حيث منحه قوةَ إحكامٍ، وأضاف عليه

---

(١) وقد أشار إلى ذلك ابن جني في باب الاحتياط قائلا: "اعلم أنّ العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له، فمن ذلك التوكيد، هو على ضربين، أحدهما تكرير الأول بلفظه، وهو نحو ذلك: (قام زيد) و(ضربت زيدا وضربت). والثاني تكرير الأول بمعناه، وهو على ضربين: أحدهما للإحاطة والعموم والآخر للتثبيت والتمكين. الأول كقولنا: قام القوم كلّهم، ورأيتهم أجمعين، والثاني: نحو قولك: قام زيد نفسه، ورأيته نفسه الخصائص لابن جني، تحقيق علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ٣/ ١٠٢-١٠٤.

لوناً من ألوان البديع يسمى حسن التقسيم، حيث كانت نهاية الجمل المرددة في سورة الشعراء: (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) عقب كل قصة، تمثل فاصلة (تنتهي بصوت أنفي مسبوق بصوت لين طويل) هي نفس فاصلة السورة، وكانت نهاية الجمل المرددة في سورة القمر: (فكَيفَ كَان عَذَابِي وَنُذُرِ) عقب كل قصة تمثل فاصلة (تنتهي بصوت تكراري مسبوق بصوت لين قصير) هي نفس فاصلة السورة، ولا يخفى على السامع مِنْ أنَّ ترداد الجمل بهذه الصورة عقب كل قصة قد حمى النص القرآني من التفكك وأعطي للتعبير القرآني قوة وجمالا، ولو أن مثل هذا الترداد قد وقع في غير القرآن لأضفي على الألفاظ الرتابة، وأصاب المُتَلَقِّي بالملل.

- شيوع ترداد الجمل في القران الكريم في السور المكية، يؤكد أنه جاء لغرض معنوي، ألا هو أداء وظيفة عقدية هامة، تتمثل في تثبيت معاني الربوبية وقيم الصلاح في نفوس الناس في بداية عهدهم بالإسلام، ففي سورة الشعراء مثلا ذُكِرَت جملتا(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وجملة (فاتقوا الله وأطيعون)، وتم ترديدهما كثيرا لتثبيت صفتين من صفات رب العزة في أذهان الناس هما صفتا العزة والرحمة، ولتثبيت قيمتين من قيم الصلاح هما: تقوى الله وطاعة الرسل، وفي سورة الرحمن تم ترديد جملة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) تنبيها للعباد ولفت أنظارهم إلى عطاءات الربوبية لتثبيت قيمة شكر النعم، وكان أسلوب الترداد في هاتين السورتين يؤدي وظيفته من باب الترغيب، أما من باب الترهيب فقد قام أسلوب الترداد في سورة القمر بذِكْر (فكَيفَ كَان عَذَابِي وَنُذُرِ) و(فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) وترديدهما عقب عرض مصارع مكذبي الرسل، وقام بذِكْر (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) وترديدها عقب تفصيل القول عن المعاد وجزاء الكافرين وثواب المتقين في سورة المرسلات؛ كل هذا الترداد تم من أجل إيصال معاني التهويل والتخويف إلى نفوس الناس بطريقة تعبيرية بديعة، لتحذيرهم من المهالك، فيجتنبوا أسبابها.

٢- في دراسة النسيج المقطعي للجمل المرددة في النص القرآني ما يضع الحق أمام الجاحدين والمغرضين، ويُظْهِر لهم بالدرس العملي التحليلي الموضوعي معنى إعجاز القرآن اللغوي، ويؤكد لهم أن المخلوقين جميعًا مهما أُوتُوا من الفصاحة والبلاغة فإن كلامهم لا يمكن أن يقترب من مستوى كلام الله في القرآن، حيث ظهرت من خلال التحليل المقطعي للبناء القرآني حقائق علمية، أوضحت عظمة القرآن التي يدركها الحس اللغوي ولا تدركها العين المبصرة، وأكدت ترابط مستويات القرآن اللغوية وتداخلها مع بعضها البعض، ومن هنا يُضَاعِف التقدم العلمي في مجال الدرس اللغوي من مسئولياتنا إزاء النص القرآني، ويوجب علينا ضرورة الاستفادة من النظريات اللغوية الحديثة فيما يخدم قضية إعجاز القرآن.

٣- الترداد كظاهرة عامة يمكننا تعريفه بأنه ظاهرة أسلوبية لها وظيفة نصية صوتية ودلالية وتركيبية، أما الوظيفة الصوتية فهي تكثيف الإيقاع الموسيقي في النص الأدبي لإثارة المتلقي وجَذْبِ انتباهِهِ إلى مضمون الشيء المُرَدَّد ليتفاعل معه، وأما الوظيفة الدلالية فهي توكيد المُرَدَّد والتعبير عن مدى أهميته، وأما الوظيفة التركيبية فهي تحقيق التماسك النصّي بين عناصر النص المتباعدة، حيث ينتظم بها الخطاب وتتماسك أجزاؤه وتتأكد معانيه.

٤- الترداد كظاهرة أسلوبية تجلّت أول ما تجلّت في الفضاء الصوتي القرآني، حيث برزت أولى بدايات تشكلها في ترداد الجمل خلال الأداء القرآني المتمثل في التلاوة والتلقين، عندما انفرد القرآن الكريم بترداد الجمل التامة مع الاتصاف بالفصاحة والإعجاز،حيث كانت الجمل القرآنية المُرَدَّدة مُمَيَّزة، تحسبها مكَرَّرة، لكنّها متجددة، لا تُدْخِل السامعَ في دائرة السآمة والملل، ولا تُوْقِع الأسلوب في الاضطراب والخلل، بل الجمل القرآنية المُرَدَّدة تعطى

الصياغة قوّة على مستوى الجملة بوضعها الجملة المُرَدَّدة في المكان المناسب من السياق، وتعطي الصياغة قوّة على مستوى النص، بمنحه التماسك والتناسق.

٥- أسلوب الترداد في السياق القرآني ليس مجرد إعادة ألفاظ وعبارات داخل النص، بل هو أسلوب بياني، له وظيفة نصية، ودلالات معنوية، وأبعاد نفسية وجمالية، أما وظيفته النصية فتتمثل في قيامه بوظيفة الربط على مستوى بنية النص الظاهرة المؤدية الى الانسجام الداخلي، ليبدو ظاهرة من ظواهر التماسك النصي، أما دلالاته المعنوية فهي التأكيد على معاني الألفاظ والجمل المرددة، وأما أبعاده النفسية فتتمثل فيما تتركه الجملة المرددة من أثرٍ انفعاليٍّ في نفس المتلقي، وما قد تعكسه من مواقف انفعالية للمتحدث، ومثل هذه المواقف لا يمكن فهمها إلا من خلال دراسة طبيعة السياق، وأما دلالاته الجمالية فتتمثل في كون ترداد الألفاظ أو الجمل يمثل ظاهرة موسيقية يتم من خلالها إلباس الصياغة إيقاعات نغمية متكررة تستميل السامع (تستثير ذهنه وتوقظ مشاعره) فتساعده على فهم صورة أو موقف ما.

٦- على الرغم من أن ترداد الجمل أسلوب بياني استخدمه القرآن وغدا ظاهرة من ظواهره، لكنه في الحقيقة أسلوب بياني عرفته العربية في أقدم نصوصها التي وصلت إلينا، حيث استخدمه العرب في الشعر الجاهلي كوسيلة إيقاعية يهدف الشاعر من خلالها إلى إحداث نوع من الموسيقى المؤثرة في السامع، وقد كان البون بين استعمال العرب لترداد الجمل واستعمال القرآن له شاسعا، حيث جاء ترداد الجمل في القرآن مذهبًا من القول فريدًا، لم يكن في مقدور العرب أن يرقوا إليه؛ لأنهم لم يأتوا به في النثر من كلامهم؛ فرارًا من الثقل وخوفًا من السقوط، إنما جاءوا به في الشعر في الشطر الأول من البيت، كي تُخْفِى القافيةُ العيبَ الناجمَ عن التكرار، ولو أنهم جاءوا به في الشطر الثاني لفسد النظم واضطرب، أما الترداد القرآني كما وقع في سورة الرحمن فقد كان أمره عجيبًا حقًّا، حيث جاءت الجملة المردَّدة آيةً مستقلة تعقيبًا على آية سابقة،

فكأن الآيةَ المردَّدةَ بالنسبة للآية التي قبلها المصراعُ الثاني للبيت الشعرى، ومع ذلك جاء الترداد القرآني أخَفَّ وقعًا وألطف مدخلًا على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى(١).

٧- على الرغم من أن النص القرآني قد وُسم بالإيجاز والإحكام لكن غايات عدّة دعته إلى اعتماد الترداد كوسيلة لا غنى عنها في تبليغ دعوته، حيث كان القرآن الكريم يخاطب في مكة كفارا معاندين، فناسب أسلوبُ التكرار والترداد مخطابتهم؛ لِمَا للتكرار والترداد من قَدْرٍ وأَثَرٍ ف التمكين لفكرةٍ ما أو الدعوة لشيء معين، حيث يؤكد كلاهما الفكرة الت تحملها العبارة المكررة ويقويها ويعمق جذورها في كيان الإنسان(٢)، من هنا لم يكن ترداد الجمل الواقع في السور القرآنية وصمة تعيب القرآن، بل هو وسام يشهد بإعجازه، حيث جاء لإقناع المخاطَبين، وجاء في مواضعه حَسَنًا ومقبولا ومستساغًا ونغما جديدا من أنغام الحسن الرائع، على العكس من التكرار والترداد الذى يقع ف كلام البشر، فكل كلام بَشَري يتكرر ويتردد يثقل ويمج ويسقط وينزل به عن درجة البلاغة(٣).

٨- لم يكن ترداد الجمل الواقع فى القرآن الكريم من عمل النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولا من مقترحاته كما ادعى بعض المستشرقين، إنما هو من عند الله، وقد بلغه محمد صلى الله عليه وسلم عن الله كما أنزل عليه بلا زيادة أو

(١) يُنْظر: إعجاز القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب صـــ ٤١٣ وما بعدها.
(٢) يُنْظر: روح الاجتماع تأليف د / جوستاف لوبون صـــ ١٣٩
(٣) يُنْظر: الفصل الخاص بظاهرة التكرار القرآنى فى كتاب ظواهر قرآنية للدكتور البدراوى زهران صـــ ٦٠

نقصان[1]، وما دراسات المستشرقين حول القرآن إلا أعمالٌ مُغْرِضة، تفتقر إلى الموضوعية والدقة العلمية، يريد أصحابها تشويه القرآن والتقليل من مستواه البلاغي الرفيع بُغْيَةَ الوصول إلى هدف واحد، هو إقناع الناس بأن القرآن ليس وحْيًا من عند الله، بل هو قولُ بَشَرٍ، يجوز نقده.

هذا وبالله التوفيق.

(١) يقول المستشرق جوستاف فون جرونيباوم: يجب ألا يغرب عن البال أن محمدا كان يبغى أن يعلم وأن يصلح، والواعظ والمعلم مجبران – بحكم عملهما فى ذاته – إلى التكرار بنفس الألفاظ تقريبا. حضارة الإسلام صـــ١٠٨.

مراجع البحث

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث القاهرة (د ت).

٢- أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن) لمحمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الفضيلة، (د ت).

٣- الأصوات اللغوية: تأليف د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦ لسنة ١٩٨٤م.

٤- إعجاز القرآن (الإعجاز في دراسات السابقين)، للأستاذ عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي،ط١، ١٩٧٤م .

٥- أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (د ت).

٦- البحر المحيط لأبي حيان، دار الفكر، ط٢ عام ١٩٧٨م.

٧- بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق دكتور حفني شرف، طبعة مصر ١٩٥٧م.

٨- البرهان فى علوم القرآن للزركشى، دار ابن الجوزى، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

٩- البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة (د ت).

١٠- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)، فخر الدّين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م

١١- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي،دار التراث، القاهرة (د ت).

١٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي دار الكاتب العربي، القاهرة (د ت).

١٣- حضارة الإسلام، جرونيباوم ، ترجمة وتحقيق عبد العزيز توفيق جاويد وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.
١٤- دراسة الصوت اللغوى للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب١٩٩٠م.
١٥- الدلالة اللفظية للدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
١٦- روح الاجتماع تأليف د/ جوستاف لوبون، ترجمة أحمد فتحي زغلول، المطبعة الرحمانية، ط٢، القاهرة.
١٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
١٨- ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين للدكتور البدراوي زهران، مطبعة النهضة العربية، الفجالة بالقاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م.
١٩- علم اللغة مقدمة للقارئ العربى للدكتور محمود السعران ، دار الفكر، القاهرة (د ت).
٢٠- فى علم اللغة العام: تأليف د/ عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، المنيرة، القاهرة (دت).
٢١- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية (نقد مطاعن ورد شبهات) للدكتور فضل حسن عباس، دار البشير للنشر والتوزيع عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
٢٢- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بيروت، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشرى، تحقيق محمد الصادق قمحاوى، مطبعة البابي الحلبي ١٩٧٢م.
٢٤- لسان العرب، دار المعارف.

٢٥- اللغة العربية معناها ومبناها: تأليف د/ تمام حسان، دار الثقافة (الدار البيضاء) د ت.
٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د ت.
٢٧- مناهج البحث فى اللغة العربية: تأليف د/ تمام حسان مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٩٠م

* * *